الإسلام مهد السبيل: لسيادة اللغة العربية كأداة علم وحضارة

للأستاذ : روكس بن زائد العزيزي

ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان في الاردن

لا شك أن انتشار الاسلام في أول عهده ، كان عاملا من أهم العوامل ، في انتشار اللغة العربية ، وزادت أهمية ذاك العامل ، بعد أن نقلت الدواوين من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية :

أ — القبطية في مصر .

ب — الفارسية في العراق .

ج — والرومية في سورية .

لان مصالح الناس ارتبطت ارتباطا وثيقا رسميا بلغة الفاتحين ، أصحاب السيادة . فأمسى الذي يريد أن يضمن لنفسه مركزا مرموقا في الدولة الجديدة ، مرغما على تعلم اللغة العربية ، سواء أدان بالاسلام ، أم لم يدن به .

*

وليس الامر خاصا باللغة العربية وحدها، فالناس في كل زمان مولعون بتقليد الغالب في كل شيء. فلما ساد اليونان تغلبت لغتهم ، ولما ساد الرومان سادت لغتهم، ولما توالت انتصارات فرنسا، انتشرت اللغة الفرنسية ولما ساد الانكليز سادت لغتهم في الهند . وعندما حكم البرتغاليون انتشرت لغتهم بحكم المصالح المعاشية .

*

أما السؤال الايضاحي ففيه نقطتان مختلفتان وهما :

أ — انه لولا الاسلام ، لما تأتى لـ (اللغة العربية) أن تنتشر في العالم .

ب — انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن ، لما انتشر الاسلام .

فجوابي على النقطة الاولى هو الايجاب ، وقد سبق لي أن أكدت ان اللغة العربية مدينة للاسلام بانتشارها ، لان اتساع رقعة الامبراطورية العربية ، وارتباط مصالح الناس المعاشية والاجتماعية ، والسياسية والدينية بأصحاب السلطة — العرب — مهد بل عمل على نشر اللغة العربية ، وفرض انتشارها .

اما النقطة الثانية ، فهي شهادة لروعة اللغة العربية ، ولجمالها ، ولكمالها ، ولسحرها ، ودليل على انها فرضت نفسها بعد أن مهد لها الاسلام ، فجعلت الاسبانيين يعشقونها ، ويعشقون من أجلها العلم ، فأضحت الاندلس ، في أيام حكم العرب ، خالية من الامية ، والاميين ، في الوقت الذي لم يكن في أوربا من يلم بالقراءة والكتابة ، سوى الطبقة العليا من القسيسين والرهبان .

واتخذ (غليوم) خلف (روجه) ملك صقلية اللغة العربية لغة بلاطه ، وجعل شعاره (الحمد لله) .

والبابا (سلفستر) الثاني نظم قصائد باللغة العربية موزونة مقفاة ، ومثله فعل (فردريك) الثاني ملك صقلية ، اذ نظم الشعر بالعربية ، وجمع في بلاطه طائفة من علماء العرب وشعرائهم ، ليضفي على

بلاطه هيبة قصور خلفاء دمشق وبغداد ، وامـــراء قرطبة واشبيلية ، أجل كان هذا كله ، وزاد عليه ، ان اللغة العربية بقيت لغة التقليد في الحب ، والعلم والشعر ، في ايطالية والمانية ، ولا سيما في صقليـة وبروفنسا ، مع هذا كله ، فاني لا **أرى أن اللغة العربية وسحرها وجمالها ، كانت سببا في انتشـار الاسلام .** فكل دين — في رأيي المتواضع — يحمل عناصـر انتشاره في تعاليمه ، لا في لغته . فلقد دانت أمم كثيرة بالاسلام ، من غير أن تعرف اللغة العربية ، ولا غيرت لغاتها من أجل الاسلام ، ولا من أجل القرآن ، وعدكان العكس ، فقد ترجم القرآن الكريم الى لغات القوم ، وليس في ذلك تحيف لقدر القرآن الشريف .

*

ففي العالم اليوم خمسمائة مليون مسلم ، من كل امة ، ومن كل لغة ، ومن كل لون فهل نفرض عليهم تعلم اللغة العربية ، لنعترف لهم بانهم مسلمون ؟

ونظرة بسيطة ترينا أن المسلمين موزعون هكذا بحسب احصاء سنة 1965 .

ا — عرب في آسية 24 أربعة وعشرون مليونا .
ب — ترك في الاناضول 17 سبعة عشر مليونا .
ج — ايرانيون في ايران 16 ستة عشر مليونا .
د — افغانيون في افغانستان 10 عشرة ملايين .
هـ — هنود وباكستانيون 85 خمسة وثمانون مليونا.
و — في جاوى 56 ستة وخمسون مليونا .
ز — روسيون 25 خمسة وعشرون مليونا .
ح — افريقيون 100 مائة مليون .
ط — أوربيون وأمركيون 3 ثلاثة ملايين .
ي — صينيون 50 خمسون مليونا .

وقد احتفظو بلغاتهم ، واحتفظوا باسلامهـم ، وترجموا القرآن الكريم ، ففهموا دينهم من غير حاجة الى اللغة العربية . واكثر من هذا ، فان مسلمي الصين عرب أصلا ، نسوا لغتهم ، وظلوا مسلمين ، فهـم منحدرون من الكتيبة التي أرسلها الخليفة ابو جعفر المنصور ، نجدة للامبراطور (سوتسونغ) سنة 755 للميلاد ، يوم ثار عليه (اللوشين) فكافأهم الامبراطور بالاقامة في أهم مدن الصين ، فتزوجوا بصينيـات ، وتناسلوا على طول الدهر ، وقد كان شرف هـؤلاء القوم يفوق الوصف ، لانهم اتصفوا بالصدق والعدل، والصلاح ، وكان الذي يتقلد منهم منصبا يتمتـع باحترام الناس وبحبهم . والذي يتعاطى التجارة منهم ، يمتاز بحسن المعاملة ، وبطيب السمعة ، وكـان الناظر اليهم يخالهم يؤلفون اسرة واحدة وقد استطاعوا بفضل كل ذلـك ، أن ينمـوا ويكثروا ، على نقيـض دعاة الاديان الاجنبية عن الصين ، الذين لم يتقدموا خطوة . وقد وثق امبراطور الصين بهؤلاء العـرب فقربهم ، ووصل بعضهم الى أعلى مراتب الحكم ، والى قيادة الجيش .

*

فلو كانت اللغة التي نزل بها أي كتاب مقدس أو كتب بها ، أو لغة مؤسس الديانة نفسه ضرورية لنشر ذلك الدين ولانتشاره في العالم ، لكان يجب ان تكون — بناء على هذا القياس — اللغة التي تكلم بها السيد المسيح (الارمية) وبشر بها ممهدة لنشر الديـن المسيحي ، ولكانت اللغة اليونانية القديمة التي كتبت بها الاناجيل — ماعدا انجيل لوقا الذي كتب بالارمية ، وفقدت نسخة الارمية فاعيدت كتابته باليونانية — لكانت سبيلا الى نشر الدين المسيحي ، ولكان بالتالي ، يجب على كل مسيحي أن يتكلم لغة السيد المسيح ، او لغة الاناجيل — على أقل تقدير — وليس الامر كذلك ، بل لقد ماتت (الارمية) وانطوت اليونانية القديمة ، ولم يقف موت (الارمية) و (اليونانية القديمة) حاجزا دون انتشار الديانة المسيحية في العالم .

*

وقد لاحظنا ان اللغة العربية — على الرغم من سحرها وجمالها ، وعلى الرغم من كونها **لغـة القرآن** الكريم — لاحظنا ، انها عجزت **أن تشـق طريقها الى أكثر الامم التي دانت بالاسـلام** ، ولم يحل ذلـك دون انتشار الاسلام .

وحكم (الغساسنة) الذين هم عمال للروم ، ديارنا الاردنية ، وكانت العربية لغة الغساسنـة ، ولغة الارادنة ، مع هذا فقد ظل القوم هم واعقابهم ، على نصرانيتهم وظلت القبائل النصرانية القوية في البلاد تحتفظ بنصرانيتها وبلغتها العربية ، وتقاليدها ولم تحولها لغتها العربية عن دين آبائها واجدادها — على رغم المساعدات التي قدمتها تلك القبائل النصرانية لاخوانها العرب المسلمين الفاتحين ، كبني تغلب ، وعشيرة العزيزات التي تنتمي الى بني شيبان وكانت فيها سدانة العزى وعبادتها ، فقـد ساعـدت في واقعة (مؤتة) وبقيت نصرانية ، ومسلموا الاردن كانوا يجهلون القرآن والكتابة ، ولم يكن بينهم من نحو مائة واربعين سنة من يقرأ القرآن ، ومع هذا فانهم لم ينصرفوا عن اسلامهم ، فصاموا وصلوا وحجـوا ،

وكان سؤال الرجل منهم ، أو استخلافه بالقرآن الكريم ، يجعله يقر حتى بجريمة القتل نفسها ، خوفا من أن يحلف يمينا فاجرة ، ولو كان المقام يتسع لذكر حوادث بعينها ، لذكرتها .

اذا ، فانا لا استطيع ان اطمئن الى الراي القائل: « انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام ! »

*

لما كون الوعي الاسلامي ، والوازع الديني يقويان ويضمحلان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف ، فالواقع في اعتقادي ، ان المسالة ليست مسالة قوة لغة ، ولا هي مشكلة ضعف لغة ، لكنها مسالة عقيدة تلامس القلب ، والعقل والضمير . وكل دين في الدنيا ، لابد له من ان يمر باربع مراحل :

ا ــ المرحلة الاولى ــ مرحلة اعتناق الدين ، والايمان بحقائقه ، وندعوها ــ اصطلاحا ــ دهشة الدين ، وتصحبها استماتة في سبيل هذا الدين ، وتقديس لكل عقيدة من عقائده ، والتقيد بكل اوامره ونواهيه ، ومحاولة الاقتداء بمعلم هذا الدين وبحواريه الى درجة ان تابع هذا الدين يستلذ الشهادة في سبيل نشر هذا الدين ، والجهر به ، ولسنا في حاجة الى ذكر مواكب الشهداء لكل دين من الاديان ، في دهشة الدين ، فالامر مشهور ، ومحاولة البرهنة عليه ، من باب محاولة اقامة الدليل على طلوع النهار والشمس مشرقة ، وفي هذه المرحلة ، تكون الرابطة الدينية اقوى من رابطة النسب نفسها ، واقوى من الرابطة القومية .

ب ــ المرحلة الثانية ، وهي مرحلة ظهور مفسرين لحقائق الدين ، وتسرب الخلاف بينهم ، بسبب خلافهم على فهم الالفاظ وتفسيرها على ظاهر اللفظ او على باطنه ، وهنا ، تبدا الرابطة الدينية تفتر !

ج ــ المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة الشكوك ، والفلسفات والبدع ، وانقسام اتباع الدين الى فرق وطوائف ، يكفر بعضها بعضا ، وقد يذبح بعضها بعضا عن عمد وتصميم ، وهو يعتقد انه يتقرب الى الله بذبح اخيه ليحمي الدين ، لانه مخالف له في الراي ــ وصحف التاريخ ملأى بالشواهد على صحة ما نقول ، وفي هذه المرحلة ، يقضي على اي امل ، في جعل الدين رابطة بين اتباعه ، حتى بين ابناء الطائفة الواحدة .

د ــ المرحلة الرابعة ــ وهي مرحلة يصبح فيها الدين ــ اي دين ــ مجرد عنوان عزة اجتماعية ، وتراث انساني ، يحافظ عليه كما يحافظ الرجل على نسبته الى آبائه واجداده ، ومن هنا ، ارى ان قوة الوازع الديني الضميري وضعفه ، لا علاقة لهما بازدهار اللغة ، ولا بضعفها ، اقول مخلصا ، ان الوازع الديني امر خاص بالضمير المهذب ، لا علاقة له باللغة ، وقد عرفت انجليزيا يكاد يضعهم يكون حجة في علوم الدين ، وفي علوم اللغة ، ومع هذا ، فقد كان ضجر الواحد منهم (اوسع من جراب الكردي) كما يقول الارادنة ! .. اي لا اثر للوازع الديني في نفوسهم ، ورايت ناسا لا يعرفون من اللغة العربية شيئا ، مع هذا فقد كانوا مثلا اعلى في الاخلاق ، وفي الدين العملي الذي هو حسن المعاملة والبر بالبشر .

*

والذي اراه ، ان روح العصر قد زعزع العقائد الدينية في النفوس ، وقلب مفاهيم الناس ، وغير نظرتهم الى اصول الحياة والى فروعها ، وهز القيمة الروحية والاجتماعية والخلقية ، من اجل هذا اصبح الدين علاقة شخصية بين الانسان وخالقه ، ولم يعد للدين ــ اي دين ــ ذاك الاثر السياسي والاجتماعي الذي كان له فيما مضى . بصرف النظر عن اللغة التي جاء بها كتاب ذلك الدين المقدس ، ونطق بها مؤسس ذلك الدين .

*

عندي ان صرخة بطرس الناسك ، ونداء البابا اللذين اثارا حروبا اغرقت الشرق والغرب بطوفان من الدماء وزجا البشرية في جحيم من الاحقاد ، لو كانا في يوم الناس هذا ، لاسرع الناس الى بطرس الناسك يزجونه في مستشفى المجانيب ، ولكان الاحتقار ، والاعراض ، هما الرد العملي على نداء قداسة البابا الذي دعا الى الحروب الصليبية التي كانت برصا لضمير النصرانية !..

*

اقول ذلك ، لان البشرية قد اجتازت هذه المرحلة واصبحت تتجه اتجاها قوميا ، وانسانيا ، لا يسمح لاعظم رؤساء الدين مهما يكن نفوذه الادبي ، ان يغير في حدود دولة من الدول ، ولو كيلو مترا واحدا . فحلت الاخوة الوطنية ، والرابطة القومية محل الرابطة الدينية .

*

فاسس الدين مهذبا للضمير الفردي ، ومنظما للطبيعة البشرية .

انا لا انكر قيمة اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم ، ذلك التراث العظيم ، فهي اذا شيء مقدس في نظر كل مسلم ، سواء اعرفها أم لم يعرفهـا ، ولا أنكر قيمتها التاريخية ، فقد كان عدد المؤلفات الفلسفية والتاريخية والدينية والفكرية والجغرافية ، التي كتبت بها خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والثاني عشر للميلاد ، أعظم ما كتب بأية لغة ، وما يزال لها اثـر واضح في لغات الغرب ، التي استعارت منها مقررات علمية وفنية شاهدا على ما نقول ، وما زالت حروفها أوسع الحروف انتشارا بعد حروف اللاتينية ، من اجل هذا يجب الاحتفاظ بها ، والمحافظة عليها وعلـى حروفها كتراث انساني خالد ، نزل به كتاب يقدسـه خمسمائة مليون من البشر .

لكن ليس معنى هذا ان ازدهار اللغة العربية ، يعني بالضرورة ارتقاء الضمير ، ولعل **ازهى عصـر اللغة العربية اطلاقا ، كان يحمل اشنع انحـراف في سلوك الامة ، وفي ضميرها ! ..**

*

اما في خصوص تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات أو اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية ، أو لدى الجاليات الاسلاميةفي الاقطار الغربية أو الاسوية فانني اعتقد ان تأثير الفكر الاسلامي في الاقطار غير العربية ، جاء عن طريـق الشريعة الاسلامية نفسها ، وتطبيقها العملي ، لا عن طريق اللغة العربية ، اقول هذا على الرغم من تسرب الفاظ عربية قرآنية في كل لغة يدين اهلها بالاسلام ، أو حكم اهلها العرب ، وبرهاني على ذلك ، ان اللغة الفارسية كان اهلها اشد الناس اتصالا بالعرب فحكمهم العرب ، ودانوا بالاسلام ، مع ذلك ، فان اللغـة الفارسية لم تغير شيئا من احكامها ، لا من أجـل القرآن الكريم ، ولا من اجل اللغة العربية .

فاللغة الفارسية لم تستعمل التنبيه ، ولا فرقت في الصفة بين المذكر والمؤنث ، ولا اشترطت المطابقة بين الصفة وموصوفها ، مع أن اللغة الفارسية من اكثر اللغات تأثيرا باللغة العربية من حيث الالفاظ ، فلنأخذ مثلا المصدر (النقلي) الذي يدعوه بعض العلمـاء المصدر (الجعلي) الذي يحيق بآخره كاسمة (يدن) نحو : فهميدن ــ الفهم . طلبيدن ــ الطلب .

ومع هذا فتأثير الفكر الاسلامي في القوم لـم يأتهم عن طريق اللغة ، بل عن طريق الدين والشريعة .

*

وقد اتضح لي من دراسة اللهجة الاردنية ، ولا سيما لهجة البادية والدساكر القريبة من الباديـة ، اصولا وفروعا ، ووضعي معجما خاصا بها ، انها من اقرب اللهجات الى العربية الفصحى ، ان لم تكن اقربها اطلاقا ، اذ يمكن رد الكثير الكثير من الفاظها الـى الفصيح وتأثيرها في تعابيرنا واسع ، حتى ان بعـض الادباء ادخلوا كثيرا من الالفاظ الاردنية العاميـة في أشعارهم ، فوجدت مكانها اللائق بها ، ولعلها زادت المعنى اصالة وعمقا ، كما فعل الشاعر الاردنـي المعروف (مصطفى وهبي التل) .

*

وقد وضعت أنا نفسي قصة عنوانها (وطنيـة خالدة) ومجموعة قصص عنوانها : (ازاهير الصحراء) استعملت فيها كثيرا من اللهجة الاردنية الصحيحـة والذي يقرأها لا يفرقها عن الفصحى في شيء سـوى النطق ببعض الاحرف .

صحيح ان استعمال اللهجة الاردنية بين ادباء الاردن ليس عاما ، لكن تأثير تلك اللهجة عندهم واضح على أي حال .

*

هذا وللغة العربية ، المكانة الاولى في ديارنـا ، وهي لغة التعليم في مراحل التعليم كلها ، ويجـب ان تظل لها هذه المكانة ، مع احدى اللغات العالمية الحية، لانها رابطة من اعظم الروابط القومية . ومن الخير لنا أن نهتم بلغتنا اهتماما يحفظها بخير ،على شرط ان لا نحول اللغة غاية بنفسها ، لان تحويل اللغة غايةيقتلها، ويقتل فكرنا معها ، ويجعل ابناءنا يكرهونها بل يمقتونها، ويمقتوننا معها ، وليس لـي في هذا المقـام ، الا ان الجأ الى كلمات الدكتور (طه حسين) القائـل : « فالتلميذ اذا ذهب الى المدرسة واستمع الى استاذ اللغة العربية في النحو والصرف ، أو في البيان ، لـم يستفد من استاذه ، الا شيئا واحدا ، وهو النفور من الاستاذ ، والنفور من اللغة العربية ، والانصراف الى شيء آخر يلهيه ويريحه من هذا العناء الثقيل ! »

هذا هو رأيي ، الذي املاه علي الاخـلاص المؤسس على التجربة .

أهم دعائـــم هـــذه الآراء

1 ـــ القرآن الكريم .
2 ـــ صحيح أبي عبد الله البخاري .
3 ـــ حضارة العرب لغوستاف لوبون .
4 ـــ الغزالي البارون كارادوفو ـــ ترجمة عادل زعيتر .
5 ـــ في صحبة الغزالي ـــ أبو بكر عبد الـــرزاق المحامي
6 ـــ الغزالي ـــ الدكتور حسين أمين .
7 ـــ مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي للسيد ابن علي
8 ـــ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
9 ـــ لماذا تأخر المسلمون للامير شكيب أرسلان .
10 ـــ العرب للدكتور فليب حتى
11 ـــ المستشرقون لعقيقي
12 ـــ محاضرات في الادب للدكتور شوقي ضيف
13 ـــ فوائد مسجلة مخطوط .
14 ـــ عشيات وادي اليابس ديوان شعر لمصطفى وهبي التل .
15 ـــ وطنية خالدة وازاهير الصحراء .
16 ـــ تعلم الفارسية .
17 ـــ اسطورة الادب الرفيع
18 ـــ ترجمة القرآن عبد الرحيم محمد علي
19 ـــ القرآن والاحوال المناخية محسن عبـــد الصاحب المظفر .